(٨٩) سعيد المغربي[١]

ذكر الشيخ أبي عثمان سعيد بن سلاّم المغربي رحمه الله تعالى:

كان رحمه الله من أكابرِ أربابِ الطريقة، وأصحابِ الرياضة، وفي الذكر والفكر آيةٌ، وله في أنواع العلوم حظٌّ وافرٌ، وفي التصوّف تصانيفُ.

وأدرك كثيرًا من المشايخ الكبارِ، وصحب النَّهرجوري، وأبا الحسن بن الصباغ، وكذلك ابن الكاتب، وحبيبَ المغربي، وأبا عمرو الزَّجاجي رحمهم الله.

مات بنيسابور سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاث مئة، وأوصى أن يُصلّي عليه الإمام أبو بكر بن فُورك[٢] رحمه الله.

قيل: وكان إمامًا في الحرم الشريف مدَّةً، ولم يكن مثلَه من أقرانه أحدٌ في علوِّ الحال وصحَّة الفِراسة والحكمة، وقوةِ الهيبة والسياسة، وعاش مئةً وثلاثين سنة.

نقل أنه قال: نظرتُ في عمري، وتأمَّلتُ فيه، رأيتُ أنّه لم يبق فيَّ من أحوالِ أيام الشباب سوى الأَملُ.

---

(١) طبقات الصوفية ٤٧٩، تاريخ بغداد ٩/ ١١٢، الرسالة القشيرية ١١٥، المنتظم ٧/ ١٢٢، مناقب الأبرار ٨٤٤، اللباب ٣/ ٣٦، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٥٢٢، العبر ٢/ ٣٦٥، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٢٠، مرآة الجنان ٢/ ٤٠١، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٢٥، البداية والنهاية ١١/ ٣٠٢، طبقات الأولياء ٢٣٧، العقد الثمين ٤/ ٥٦٧، النجوم الزاهرة ٤/ ١٤٤، نفحات الأنس ١٣٢، طبقات الشعراني ١/ ١٢٢، الكواكب الدرية ٢/ ٩٩، شذرات الذهب ٣/ ٨١، هدية العارفين ١/ ٣٨٩، جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٨١.

(٢) تقدم التعريف به صفحة (١٤) الحاشية (٣).

أقول: يُشير إلى أن الجدَّ والاجتهاد إنّما يكونُ في الشباب، قال النبي ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس؛ شبابك قبل هرمك. . .» الحديث[1]. **[والله أعلم]**.

نقل أنه رحمه الله اعتزلَ عن الناس في ابتداء حاله عشرين سنةً، وكان يدورُ في الجبال والمفاوز البعيدة عن العمران، بحيثُ لم يسمعْ في تلك المدّةِ صوتَ الإنسان قطّ حتى أذابتِ المشقَّةُ والرياضة بنية جسده، وتضيَّقتْ عيناه حتى بقيت كلٌّ منهما مقدارَ ثقبة مسلّةٍ، وتغيّرت صورته الشريفة عن وضع صُور الآدميين، ثم بعد تمام عشرين سنة أمرَهُ الله تعالى بطريقَ الإلهام أن يخالطَ الناسَ ويُصاحبَهم، فقال: المصلحةُ أن أمشي أولاً إلى مكّة الشريفة، وأزورَ الكعبةَ، وأصاحبَ المُجاورين هناك، ثم بعد ذلك أُلاقي مَنْ قدَّرَ اللهُ تعالى. فتوجّه إليها، ولمّا قرب من مكّةَ خطرَ ببال المشايخ المقيمن بها: أنَّ أبا عثمان جاءَ، فاستقبلوه، ووجدوه متغيِّرَ الحال، متبدّلَ الصورة، فقالوا: يا أبا عثمان، قد عشتَ عشرين سنة، وما خالطت إنسيًّا، ولم يبق فيك من الإنسانية إلاّ رمقٌ، والناسُ عجزوا في شأنك، فأخبر لنا لماذا تهتَ، ولِمَا رجعتَ، وما وجدتَ، وما رأيتَ؟ فقال: عجزتُ في حالٍ، فدخلتُ البادية، وانقطعتُ عن الخلق عسى أن أقطعَ الأصل، فما وصلَتْ يدي إلاّ إلى الفرع، فناداني مُنادٍ: يا أبا عثمان، دُرْ حولَ الفرع، وكن في مقام الشكر، أمّا قطعُ الأصل فليسَ إليك، والحالُ أنّ الصحو الحقيقي ليس إلاّ فيه، فالآن رجعتُ كما كنتُ فيه. فقال المشايخ: حرامٌ على أحدٍ بعدك من أهلِ الاعتبار أن يعبرَ عن الصحو والسكر.

أقول والعلمُ عند الله: يُمكن أن يُقالَ: المُرادُ بقطع الأصل قطعُ عرقِ ما سوى الله تعالى عن روضة القلب، وقلعه عنه، ولا شكَّ أنَّ هذا كما ينبغي لا يدخلُ تحت قدرةِ العبدِ واختياره؛ بل القادرُ عليه إنّما هو الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] **فلا جرم أنّه نهى عنه، وأمره بالتفويضِ إليه تعالى.**

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٠٦ عن ابن عباس، وهو في المصنف لابن أبي شيبة ٧/ ٧٧، والحلية لأبي نعيم ٤/ ١٤٨، وشعب الإيمان ٧/ ٢٦٣ عن عمرو بن ميمون.

وأمّا الفرعُ الذي أمرَه بالدوران حوله والاشتغال به، فالمرادُ به امتثالُ المأمورات، والانتهاءُ عن المنهيات، وسائر الصفات الحميدة، والأخلاق الجميلة، كتهديد النفس وتصفيتها عن الكُدورات الجسمانية، وإن كان ذلك أيضًا بتوفيقِ الله تعالى وهدايته؛ لكنّه ممّا يدخلُ تحت قدرة العبد واختياره في الجملة، وإلاّ يكون التَكليفُ به تكليفًا بالمحال، واللهُ أعلم بحقيقة الحال. [والله أعلم].

نقل أنه قال: كنتُ في ابتداء الحال من غلباتِ الشوق بحالةٍ كان الإلقاءُ من السماء على الأرض أحبَّ إليَّ من وضع الطعام في الفم، ومن الاشتغال بالطهارة لأداء صلاةِ الفريضة، وذلك لأنّي كنتُ أمراً غائبًا[1] عن الذكر مدّةَ الاشتغال بالطعام والطهارة، والغيبةُ عن الذكر كانَتْ أشقَّ عليَّ من كلِّ مشقَّةٍ وشدّةٍ، وكان يعبرُ عليَّ في حالةِ الذكر أمورٌ هي بالنسبة إلى غيري كرامات، وكانت عليَّ أشدَّ من ارتكابِ كبيرةٍ، وكنتُ أريدُ ألاّ يأخذني نومٌ أبدًا لئلا أَدعَ الذكرَ حالةَ النوم، فصنعتُ حيلةً لأدفعَ بها النوم، فطلبتُ صخرةً ملساء قدرَ ما يسعُ موضعُ قدمين، وهي على شفيرِ وادٍ عميق، فكنتُ أقعدُ عليها بالليل، ويهربُ النومُ مخافةَ أن أنحدرَ منها، وأقعَ في أسفل الوادي.

نقل أنه قال: بتُّ مع أبي الفوارس ليلةَ العيد، وهو نائمٌ وأنا يقظان، فعبرَ على قلبي: أن لو كان لي شيءٌ من السَّمْنِ لصنعتُ للإخوان طعامًا، فقال أبو الفوارس وثلاث مرات، وهو في النوم: اطرحِ السمنَ الذي بيدك. فلمّا استيقظَ سألتُهُ عن مقاله، قال: إنّي رأيتُ في المنام أنّي كنتُ في موضعٍ عالٍ مع جماعةٍ، وكان في علمنا أنّا نرى الله تعالى في تلك الحالة، وامتلأتِ القلوبُ، ورأيتُك هنالك، وبيدك السَّمنُ، فقلتُ: اطرحِ السمن من يدك.

نقل عن أبي عمرو الزَّجّاجي أنه قال: لازمتُ الشيخَ أبا عثمان رحمه الله حتى كدتُ لا أصبر عنه لحظةً، فرأيتُ في المنام قائلاً يقول: كم تتأخَّرونَ عنّا

---

(١) في الأصل: كنت أميرًا غائبًا.

بأبي عثمان! وكم تشتغلون عنّا بأبي عثمان! فحضرتُ اليومَ الثاني حدّثت، وكنّا في تدبيرٍ أن نخبرَ هذا الشيخ، إذ دخلَ علينا الشيخُ بالعجلة حافيًا، وقال: يا جماعةَ الأصحاب، لما سمعتم ما سمعتم، وحدّثتم به، فأعرضوا عن أبي عثمان، ولا تشوّشوه بعد اليوم.

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي: كنتُ عند الشيخ أبي عثمان رحمهما الله، وكان رجلٌ ينزح الماءَ من البئر بالدُّولاب، ونحن نسمعُ من الدولاب صوتًا، فقال أبو عثمان: يا أبا عبد الرحمن، أتدري ما يقولُ الدولاب؟ قلت: لا. قال: يقول الله، الله[١].

ثم قال: من يدّعي السماعَ، ولا سماع له من أصواتِ الأطيار[٢]، أو صرير الباب، أو هبوب الريح فهو كاذبٌ في دعواه.

وقال الشيخ أبو عثمان رضي الله عنه: إذا استقرَّ العبدُ في مقام الذكر فإنّه يصيرُ كبحر تخرجُ منه أنهارٌ وسواقٍ، وتجري إلى الأطراف والجوانب، وذلك بحكم الله تعالى ومقتضى حكمته، ولا يكون فيه حكمٌ لغيرِ الله تعالى، وحينئذٍ فهو يرى الكون كلَّه بنور الذكر، ولا يخفى عليه شيءٌ من عالم المُلْكِ والملكوت، والسموات والأرضين، حتى إذا تحرَّكَتْ نملةٌ في حجرتها، فإنه يراها، وحينئذٍ تتمُّ حقيقةُ التوحيد، وتحصلُ له من الذِّكر حلاوةٌ ولذَّةٌ إلى أن يتمنّى الموتَ والفناء، لأنّه لا يبقى له طاقةُ ذوقِ تلك اللذَّة.

ونقل الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله أن الشيخ أبا عثمان رحمه الله لم تكن له طاقةُ لذَّةِ الذكر، وطاقتُهُ كانت تفنى أحيانًا، فكان يرمي نفسه من الخلوة إلى الخارج ويهربُ.

ونقل عن الشيخ أبي عثمان رحمه الله أنه قال: من استأنسَ بالمعرفة وذكرِ الله تعالى فلا يزولُ أُنسه بالموت، بل يزدادُ بأضعافِ ما كان في حياته،

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٨٠ (السماع).

(٢) في الرسالة القشيرية: من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور.

وتزدادُ راحته، وذلك لارتفاعِ الأشياء المشوّشة، وبقاءِ المحبّة الصَّرفة.

وقال رحمه الله: الدليلُ إلى الجنابِ الأعظمِ الأرفع شيئان: النبوّة والحديث. أمّا النبوّة فقد ارتفعتْ وخُتمتْ على خاتم النبوة عليه السلام، وأمّا الحديثُ فباقٍ.

و: طريقُ المجاهدة الذكر، ثُمَّ إن حصلَ الوصالُ العزيزُ الدائم الذي لا ثمنَ له بهذا العمر القليلِ الزائلِ الفاني فرخيصٌ جدًا.

أفلا يكونُ من الخذلان والشقاوة صرفُ هذا العمر فما يحصل به الفراق الأبدي؟!.

وقال: من اختار الخلوة على الصحبة[1]، فينبغي أن يتركَ أولاً كلَّ ذكرٍ، ويخلّي قلبَه عن الأذكار كلِّها إلاّ عن ذكرِ الحقِّ جلَّ جلاله، ويتركَ الإرادات كلَّها إلاّ عن رضا الحقِّ، فإنْ لم يكن مُتَّصفًا بهذه الصفات فالخلوةُ هلاكٌ له، وبلاءٌ عظيم.

وقال: ما وصلَ أحدٌ إلى مقامات الخواص إلاّ بعد رعايةِ الأدب والرياضة، فإنْ بقي عليه شيءٌ منها فالوصولُ مُحال.

وقال رحمه الله: العاصي خيرٌ من المُدّعي، لأن العاصي في طلب التوبة دائمًا، والمدّعي مُبتلىً بحالِ دعواه دائمًا.

وقال رحمه الله: من اختارَ صُحبةَ الأغنياء على صُحبة الفقراء، ابتلاه اللهُ تعالى بموت القلب، نعوذ بالله منه.

وقال: لا يُفلحُ أبدًا من مدَّ يدَهُ إلى طعام الأغنياء بالشَّرَهِ ـ أي بشدّة الشهوة ـ ولا عذرَ في هذا إلاّ للمضطر.

وقال: يضيعُ حالُ من يشتغلُ بأحوال غيره.

وقال رحمه الله: مثلُ مجاهدة المرء في تصفية القلبِ كمثلِ من أُمِرَ بقلعِ

---

(١) في الأصل: على الصحة، انظر الرسالة القشيرية ١٨٤ (باب الخلوة والعزلة).

شجرةٍ صغيرة، ولا يقدُر على قلعها، فيصبرُ إلى أن تحصل له القوةُ والقدرة عليه، ولا يعلمُ أنّه كلّما يمرُّ عليه ساعةٌ فإنه يزدادُ ضعفُه، وتتقوّى الشجرةُ، وتتزيَّنُ وتزدادُ قُوَّتُها وغلظتها، ويصعب عليه قلعُها، ثم يندمُ على ما فات، ولا ينفعُهُ الندمُ.

نقل أنه رحمه الله سمع أنَّ فلانًا يُريد أن يسافر، فقال: يجبُ عليه أن يسافرَ من الهوى والشهوة وجميع مُراداته، لا عن وطنِهِ؛ فإنَّ السفرَ من الوطن غربةٌ، والغربةُ ذلّةٌ، والمؤمنُ عزيزٌ[1] لا ينبغي أن يجعلَ نفسَه ذليلاً.

نقل أنه رحمه الله سُئل عن الخَلْق، فقال: عالمٌ يَجري عليها أحكامُ القدرة.

وقال: إنَّ الله تعالى خلقَ قلوبَ العارفين ذاتَ وجهين: وجهٌ إلى عالم الملكوت، وآخرُ إلى عالم الشهادةِ، والطوارىء والحظوظُ التي تردُ على قلبِ العارف إنَّما هي تردُ على الوجه الذي هو مقابلٌ لعالم الملك والشهادة، فحينئذ يتنوَّرُ هذا الوجه أيضًا، فتنكشفُ عليه الأسرار، ويصيرُ خبيرًا بما في ثمانية عشر ألف عالم، وانعكاسُ أنوارِ الحقائق من ذلك الوجه إلى هذا الوجه يُسمّى معرفة.

أقول: قيل: الموجودُ على قسمين: قسمٌ يُدركُ بالحسِّ الظاهر كالسماء والأرض والإنسان وغيره، ويُسمّى هذا بعالم الشهادة والملك والخلق، وقسمٌ لا يُدركُ إلاّ بالعقل، ويُسمّى بعالم الغيبِ والملكوت والأمر، وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[2] [الأعراف: ٥٤] وبقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وبقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣]. [والله أعلم].

نقل أن الشيخ رحمه الله أبا عثمان سُئل عن سبب انقطاع أهل الطريق من السلوك، قال: لظهور الخلل في نوافلهم وفرائضهم.

---

(١) في الأصل: والمؤمن العزيز.

(٢) في الأصل: ألا له الملك والأمر.

وسئل عن أحسن الصحبة، قال: ما أوسعت على أخيك ما تُريدُ وسعَتَهُ عليك، ولا تَطمع فيما له، وتحتمل الجفاء عنه، وتنصفُ له، ولا تطلبُ الإنصافَ منه، وتكون له تابعًا لا بالعكس، وتعظّمُ ما يصلُ منه إليك من الخير، وتحقّرُ ما يصلُ منك إليه.

وقال: أوصلُ شيءٍ يُلازمه الإنسانُ محاسبةُ نفسه، والمراقبةُ، والمحافظة على العلم في جميع الأحوال والأعمال.

وقال: الاعتكافُ حفظُ الجوارح تحت الأمر والنهي.

وقال: لا يعلمُ أحدٌ شيئًا إلاّ بعد أن يعلمَ ضدَّه، ولهذا لا يصحُّ الإخلاصُ إلاّ بعد معرفة الرياءِ وأسبابه.

وقال: من يركبُ مركبَ الرجاء فإنه ييئسُ بالكلّيّة، ويتعطّلُ عن العمل، وكذلك من ركبَ مركبَ الخوف، يَصير آيسًا، ولكن تارةً هذا وتارةً ذلك، ليكون العبدُ بينهما سالمًا.

وقال: العبوديةُ اتّباعُ الأمر على شاهدة الأمر.

وقال: الشكرُ هو إدراكُ العجز عن كمالِ شكر النعمة.

وقال: التصوّفُ هو قطعُ العلائق، ورفضُ الخلائق، والاتّصالُ بالحقائق.

أقول: الخلائقُ جمع خليقة، وهي ما يعني المخلوق، وعلى هذا يكونُ المرادُ تركَ المخلوقات كلّها، والتوجُّه إلى الله تعالى، وهو بمعنى الطبيعة، قال الشاعر:

قسمَ الخلائقَ بيننا خلاّقُها[1]

قال في «الصحاح»: المُرادُ الطبائع، أي: قسم الطبائع بيننا خالقُها. وعلى

---

(١) عجز بيت، نسبه الجوهري في الصحاح ٤/ ١٤٧١(خلق) إلى لبيد، وروايته فيه: بيننا علاّمها. وصدره:

فـاقنـع بمـا تسَـمَ المليـكُ فـإنّمـا

هذا المُرادِ تركُ العادات التي هي مقتضى الطبيعة، وكلا المعنيين حسنٌ، موافقٌ للمقصود. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: الشوقُ محبّةُ الموتِ في حال الراحة.

وقال: العهد حالُ المُريدين لأهل الحقائق.

وقال: من له تصديقُ الأولياء، فهو من الأولياء.

أقول: وذلك لأنَّ من صدَّقهم فلا جرمَ أنّه يحبُّهم، ومن أحبَّهم فهو منهم، قال النبيُّ ﷺ: «المرء مع من أحب»[(١)]. و«من أحبَّ قومًا فهو منهم»[(٢)]. والله أعلم.

قال: كنْ مشهورًا، ولا تكن مفتونًا.

أقول: معناه أن الشهرةَ ليست آفةً على الإطلاق، بل إذا صارَ الإنسانُ مفتونًا بسببها، فعلى هذا الآفة المُهلكة هي الافتتان والاغترار، لا الشهرة وحدها، ولكن لمّا كانتِ الشهرةُ مع الافتتان غالبًا، وقلَّما يكون الإنسانُ مَشهورًا غيرَ مفتونٍ في نفسه، قال علي رضي الله عنه: الشهرة آفة وكلٌّ يتولاّها. والله أعلم.

نقل أنّه لما حضرتْ وفاةُ الشيخ رحمه الله أبي عثمان، أحضروا له طبيبًا، فقال الشيخ: أما مثلي ومثلُ هذا الطبيب كمثل يوسف عليه السلام مع إخوته، فإنَّ الله تعالى قدّرَ له في الأزل تقديرًا، وهم غافلون عنه، وشرعوا يدبّرون فيه تدبيرًا. ثم أوصى أن يُصلّي عليه الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله.

وقال الإمام أبو بكر رحمه الله: كنت عند أبي عثمان المغربي رحمه الله حين قَرُبَ أجلُه، وشخص مُغنٌّ اسمُهُ علي القوّال الصغير، يقول شيئًا، فلمَّا

---

(١) قوله ﷺ: «المرء مع من أحب» تقدم تخريجه. انظر صفحة ٥٠١.

(٢) لم أجده بلفظه، وإنما هو: «من أحبَّ قومًا حَشرهُ الله في زمرتهم» رواه الحاكم في المستدرك ١٨/٣، والطبراني في الكبير ١٩/٣ عن أبي قرصافة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٨١/١٠: وفيه من لم أعرفه.

تغيَّرَ عليه الحال[١]، أشرنا على عليٍّ بالسكوت، ففتح أبو عثمان عينه، وقال: لِمَ لا تَقولُ شيئًا؟ فقلت لبعض الحاضرين: سلوه: على ما يسمعُ المُستمعُ؟ فإنّي خشيتُ أن أسألَ. فسألوه، فقال: إنّما يسمعُ من حيثُ يسمع. وتوفّي إلى رحمة الله تعالى.

ونسأل الله تعالى أن يفيضَ عليه وعلينا من بركاته، ومن بحرِ كرمه الموّاج زلالَ لطفِهِ وإحسانه ورضوانه، ولا يحرمنا بمنِّهِ العميم عن عفوه ومغفرته وامتنانه، إنه رؤوفٌ رحيم، كريم لطيف، وأن يُصلّي على عبده ورسولِهِ وحبيبه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) في الأصل: فلم يُغيّر عليه الحال. والمثبت من الرسالة القشيرية، صفحة ١١٥.